

الفرد والمجتمع والثورة في عصر المعلومات

أكرم محمد حجازي*

الملخص

يندرج هذا البحث في إطار ما يمكن تسميته قريبا بعلم الاجتماع الرقمي. ولأن العصر الذي نعيش يشهد انفجارات كبرى لعدة ثورات علمية غير مسبقة في تاريخ الإنسانية كالثورة المعلوماتية والجينية والاقتصادية، فإن البحث يتوجه نحو التفكير في إفرات عصر المعلومات عبر موضوعات مركزية تهتم علم الاجتماع، وهي:

- دور علم الاجتماع في عصر المعلومات ومدى قدرة النظريات التقليدية وصلاحياتها في مواجهة الظواهر الناجمة عن العصر الرقمي.
- مكانة الفرد والمجتمع كمفهومين مركزيين في علم الاجتماع في ضوء ظهور الإنسان والمجتمع الافتراضيين، وفي ضوء الخشية من تلاشيهما لصالح الفضاء الافتراضي.
- معاينة الإشكاليات المفاهيمية فيما يتعلق بـ "مجتمع المعلومات"، وما إذا كانت المسألة تتعلق بالمفهوم؟ أم بالبناء؟ مع ملاحظة الفوارق بين المصطلحات الشائعة كالمجتمع الافتراضي أو الواقعي أو الرقمي أو المعرفي.

وفي المحصلة يقدم البحث ملاحظات ختامية تتصل بـ: (١) موضوع علم الاجتماع في ظل العلوم الرقمية (٢) العلاقة بين المجتمع الواقعي والمجتمعات الرقمية كأساس وحاضن لها (٣) التفاعل الاجتماعي كشرط حاسم يحدد مدى سطوة المجتمعات الرقمية على المجتمع الواقعي.

تاريخ استلام البحث: ٢٠٠٥/١/١٠م، تاريخ القبول: ٢٠٠٦/١/١٩م.

كلمات مفتاحية: مجتمع المعلومات، مجتمع المعرفة، المجتمع الرقمي، الرقمية، المجتمع الافتراضي، الإنسان الافتراضي، علم الاجتماع الرقمي.

المقدمة

كالزلازل والأعاصير وغيرها، ولعلها مفارقة أن نقارب حالة الكرة الأرضية، ونحن نعيش ثورات علمية ومعرفية فريدة في التاريخ الإنساني، بأطروحات ميتافيزيقية، أليست الكرة الأرضية مرتكزة اليوم، بما يشبه تبادلا بالأدوار الوظيفية، على جهاز الحاسوب؟ ألا يؤدي خلل تقني أو فني إلى توقع كوارث إنسانية، بسبب أن العالم اليوم يجري ربطه، من أقصاه إلى أقصاه وحتى ما بين أعماقه الجيولوجية والفضائية، بوساطة الحاسوب، بما يوحي باضمحلال متغيري الزمان والمكان؟ ولنتساءل ببساطة: ماذا لو توقف الحاسوب

ثمة أسطورة إنسانية قديمة لعلها يونانية، على الأغلب، تعتقد أن الكرة الأرضية مستقرة ومتوازنة دون حراك في الوقت الذي تركز فيه على قرن ثور واقف، ولكن ما أن يشعر الثور بالتعب أو التملل حتى يأخذ بالتهوي لحركة أو اهتزاز يخفف عنه وزر ما يحمل، أو يتجه نحو حركة جذرية فينقل الأرض على القرن الثاني، فيسبب بين الفينة والأخرى حدوث بعض الظواهر الطبيعية المدمرة

* أستاذ مساعد، كلية الآداب، جامعة تعز - اليمن.

مبدع ينبغي أن يدعى للقيام بدوره ومسؤولياته.

هكذا، على الأقل، فنحن، إذن، على مشارف قطيعة معرفية تامة مع الماضي. فالرقمية، عبر وسائلها التقنية ومناهجها، باتت تشكل منذ الآن الحد الفاصل بين الحاضر والمستقبل، وكما يقول أحد الباحثين: "قلو تموقعنا في أية نقطة زمنية لاحقة من القرون المقبلة لصار وقتنا الحالي لحظة مرجعية لإحدى أكبر الثورات التي عرفتها البشرية، وشهود عيان لحدث تاريخي اجتماعي عظيم" (اسليم - أ). ومن المؤكد أن المجتمع وكذا الإنسان القادمين لن يعودا المتغيرين المعرفيين اللذين أنجبتهما عصور الميكانيكا في القرن التاسع عشر أو الثورات الصناعية والتكنولوجية في القرن العشرين. فمن يكونان إذن؟ وما هو محتواه؟ وأي مستقبل ينتظر البشرية في العصر الرقمي القادم بسرعة تكاد تلغي الزمن؟

علم الاجتماع والثورات العلمية الكبرى

ليس إنقاصا من عبقرية المفكر العربي ابن خلدون في تفسير الكثير من الظواهر الاجتماعية والإنسانية، ولكن، على الأقل، منذ ولادة علم الاجتماع الحديث في النصف الأول من القرن التاسع عشر على يد العالم الفرنسي أوجست كونت (A. Cont) مهر علماء الاجتماع في تعريف المجتمع والظاهرة الاجتماعية، ولئن كان لمفكري العقد الاجتماعي رأي في تكون المجتمعات منذ فجر التاريخ إلا أن الوضعية، ابتداء من سان سيمون (S. Simon) وكونت وإميل دوركايم

عن العمل أو اختفى؟ فهل ستستأنف البشرية حياتها كما لو أن شيئا لم يحدث؟ وإلى أي مدى ستقودنا الصناعات الثقيلة لتكنولوجيا الاتصال والمعلومات؟ أي مجتمع وأي نظام وأي إنسان ستخلفه العلوم الرقمية؟ الحقيقة أنه ثمة عشرات التساؤلات التي تتدافع مخلفة وراءها فيضا آخر من التساؤلات بلا توقف وبلا رحمة. ولكن قبل الإجابة عن بعضها يحسن بنا تأطير هوية هذا البحث.

تأطير هوية البحث

• هذا البحث يندرج في إطار مقولة الباحث الفرنسي جان كلود غيبو المهتم بالعلوم الرقمية الذي يعدّ النشاط الإنساني الرقمي عملية تدريب صعبة على المفاهيم الافتراضية التي نعيشها في عالمنا الراهن (غيبو - ب، ٢٠٠٣).

• كما يندرج فيما يسميه البعض بعلم المستقبلات؛ وهو علم حديث لا شك أنه سيكون لكل العلوم الأخرى ذات الطابع الإنساني حصة معتبرة فيه، وعلى الأخص ما يمكن تسميته بعلم الاجتماع الرقمي في هذه اللحظات الثمينة من الزمن. إن ما يجري من تحول غير مسبوق في تاريخ البشرية هو نوع مختلف عما أسماه كارل مانهايم (Karl Manheim) في يوم ما من منتصف القرن العشرين بالقطيعة الابستمولوجية، تعقيا على حالة البشرية بعد الثورة الفرنسية ١٧٨٩، والتي غيرت وجه أوروبا والعالم، بانتقاله من مراحل التفكير الماورائية إلى مراحل التفكير العقلية، واحترام الإنسان كصاحب عقل

متقدما محملة إياه المسؤولية عن اختياراته. وكذلك تيار البنيوية التقليدية وما يعد التقليدية خاصة أبحاث العالم الفرنسي الراحل بيير بورديو (Pierre Bordieu).

كل هذه النظريات ظهرت بالتوازي مع التيارات الأنثروبولوجية التي اهتمت بعلم الإنسان وجعلت من ثقافته وعاداته وسلوكياته وقيمه ورموزه موضوعا لها، وتزعما في حينه كلود ليفي شتراوس (Claude Lévi-Strauss) وراي كليف براون (Radcliffe Broun) وبرونيسلاو مالينوفسكي (Bronislaw Malinowski) ورالف لنتون (R. Linton) وجورج هربرت ميد (G.H. mead) وتشارلز كولي (CH. Kolly) وغيرهم.

والحقيقة أن معظم نظريات علمي الاجتماع والأنثروبولوجيا إن لم يكن جميعها، بنيت وصيغت على أساس الجماعة وليس الفرد، حتى لو كان الفاعل فيها فردا، ما عدا نظرية واحدة نحتها عالم اجتماع فرنسي آخر هو ريمون بودون (Raymond Boudon) في أعقاب النقد الذي تعرضت له العلوم الاجتماعية والإنسانية في أربعينات القرن العشرين، وهذا النقد قاده آنذاك الفيلسوف الراحل كارل بوبر (Karl Popper) على خلفية الحاجة إلى التنوع النظري ورفض الأطروحات الوضعية، التي تحصر العلوم الإنسانية والاجتماعية، في أطر نظرية جامدة تعرقل التطور العلمي والمعرفي. هذه النظرية تعرف بـ"الفردوية المنهجية" وهي التي تصر على اعتماد المناهج الفردية في علم الاجتماع وتفصح عن الظاهرة الاجتماعية على أساس

(Émile Durkheim)، حسمت الأمر باعتبار المجتمع ظاهرة طبيعية موجودة بمعزل عن إرادة الأفراد، وتنتج بفعل تفاعلهم وأنماط حياتهم ظواهر يمكن السيطرة عليها، بشرط اكتشاف القوانين الخاصة بها.

وفي هذا السياق كانت الماركسية محملة بتقل الاقتصاد بوصفه القانون الذي يفسر الصراع الاجتماعي على الدوام، وقانون الحالات الثلاث لـ أوجست كونت الذي يفسر مراحل تطور البشرية وانتقالها من نمط تفكير ما ورائي إلى آخر عقلاني وقانون تقسيم العمل الاجتماعي لـ إميل دوركايم الذي يفسر حالة المجتمعات البسيطة التركيب مقابل المجتمعات المعقدة التركيب. وغداة الكفاح الميرر الذي خاضته المدرسة الدوركيمية، لتثبيت علم الاجتماع علما وموضوعا ومنهجيا، تطورت النظرية الاجتماعية بمعدل عقد أو عقدين لميلاد النظرية الواحدة أو أقل من ذلك متجاوزة كثيرا الأطروحات الوضعية كما فعلت النظرية الوظيفية التي رأت في المجتمع أنساقاً تنعم بالاستقرار والتوازن، فالظواهر والبنى الاجتماعية كلها تؤدي وظائف لتحقيق الأمن الاجتماعي، وكذا الحديث عن الصراع الاجتماعي والحاجة إليه لتحقيق الوفاق بتعبير داهرندوف (R. Dahrendorf).

ومع مطلع خمسينات القرن العشرين انفجرت سلسلة من النظريات الاجتماعية كتيار علم الاجتماع الدينامي الذي قاده ألن تورين (Alain ouraine) ونظرته إلى المجتمعات من خلال مفهوم التاريخانية، أو منظومة العمل التاريخي التي يعمل بموجبها والتي تميز كل مجتمع سواء أكان متخلفا أو

منبثقة عن سلوك فردي ليس جماعياً، إذ إن تفسير ظاهرة معينة يعني الأخذ بعين الاعتبار أنها نتيجة للأفعال الفردية. وهذه الأفعال هي المواقف والآراء والسلوكيات (أنصار، ١٩٩٢). هذه النظرية تبدو وكأنها تحاول إثبات ما ذهبت إليه منذ عقود لتقول: ها هو الفرد يتمركز الآن في صدارة الفعل والاهتمام في العصر السيبري "Cyber Age".

إن ما نعيشه في أيامنا هذه وسنعيشه في العقود اللاحقة، إن لم تكن السنين القادمة، هو عصر الإنسان/ الفرد والمجتمع الافتراضيين اللذين يمثلان الآن بعضاً من أبرز ظواهر العصر الرقمي. لقد خرج مؤتمر مدريد للسوسيولوجيا سنة ١٩٩٤ بنتيجة مؤداها أن السوسيولوجيا في خطر وفي أزمة، لأنها عاجزة الآن عن ملاحقة التسارع الكبير في التحولات الاجتماعية، فإذا كان كل شيء تغير أو في طريقه إلى التغير، فهل سيكون بمقدور السوسيولوجيا، بأدواتها التقليدية، ملاحقة ما ينتجه العصر الرقمي القادم من ظواهر تمس صميم السوسيولوجيا، كالفرد والمجتمع والعلاقات الاجتماعية؟ بل وحتى التراث السوسيولوجي برمته؟ فما الذي باستطاعة السوسيولوجيا بتراتها الراهن أن تفعله في مجتمع يتميز بوقع سريع للخطى غير معهود؟ ونحن في زمن التحول الجذري الذي بات يقاس ببضع سنين وليس ببضعة قرون، وما الذي تحضر له السوسيولوجيا العالمية لهذا التحدي؟ أم أنها واقعة كغيرها تحت هول الصدمة؟ أسئلة نقترحها للتأمل دون الإجابة عنها في الوقت الراهن.

لو انطلقنا من لفظة الثورة بوصفها دالة على تغيرات جذرية اجتماعية وسياسية واقتصادية وثقافية، لوجدنا أن المفهوم ومشتقاته السياسية (حركات التحرر الوطني) والعلمية (الحركات الاجتماعية) اتخذ على الدوام صيغة سجالية ذات طابع أيديولوجي، سواء أكان ذلك من قبل المنظرين الليبراليين أم من قبل المنظرين الماركسيين. ولكن ثمة إجماع لدى الطرفين، لا سيما الأميركي والأوروبي (الغربي والشرقي) على أن الثورة هي حادثة اجتماعية، يمكن أن يكون لها أثر إنساني ذو بعد تراكمي.

وعلى هذا الأساس فالثورة كالعاصفة تقاس بالآثار التي تخلفها على أمة ما ومدى ما تقدمه من إسهام في خدمة البشرية. وبالمعنى المقترح هذا؛ ثمة أربع أو خمس ثورات عالمية هي: الثورة الإنجليزية (١٦٦٠) التي انطوت على حدث فريد تمثل بمحاكمة الملوك وإعدامهم بوساطة عامة الشعب. والثورة الأميركية (١٧٧٥) التي استنتت قاعدة جديدة في العلاقة بين الحكام والشعوب "لا ضرائب بلا تمثيل". والثورة الفرنسية (١٨٧٩) التي جاءت بميثاق حقوق الإنسان والمواطن، وهو الذي أصبح ميثاقاً عالمياً. والثورة الشيوعية في روسيا (١٩١٧) التي شددت على أن المساواة السياسية بمعزل عن المساواة في فرص الحياة تعني أنها مجرد حق. والثورة الصينية (١٩٤٩) التي قدمت فئات الفلاحين رواداً للنضال والحرب الشعبية طويلة الأمد (الكياي، ١٩٨٦، إبراهيم وآخرون، ١٩٨٢).

ومن الملاحظ أن كل واحدة من الثورات المذكورة مثلت واقعة اجتماعية وتاريخية

وعلى هذا الأساس فـ "مصطلح ثورة المعلومات، ليس هو ذلك المصطلح الذي يمكن الحصول على تعريف له بالسهولة التي يمكن أن تحدث بين الآلية التي يعمل بها، وبين الفهم الإنساني لهذه الآلية، وبحيث يتوافق هذا الفهم مع الطبيعة الثورية فيه. ولذلك سبب ممثل في مقياس الثورة التي جابقتها التقنية على البشرية، فاندفعت المعلومات في طريق أو منطق اللاعودة" (ابن يونس- ب، ٢٠٠٤).

ومن المؤكد أننا في مرحلة الانفجار العلمي بمستوى يفوق حصيلة كل خيالنا العقلاني، الذي سبق وأن خلفته الثورات العلمية التي أعقبت الثورة الفرنسية ١٧٨٩، وبمستوى من "العمومية بحيث يكتسح بشكل كامل المجتمع الإنساني جميعه، ... ف، ثورة تكنولوجيا المعلومات هي ثورة لا ينتهي مداها الثوري عند نقطة أو مرحلة معينة" (ابن يونس- أ، ٢٠٠٤)، وسبب ذلك ببساطة لأنها لا متناهية ولأنها، وهذا هو الأهم، ليست الوحيدة. ففي مقالة ثمينة لـ جان كلود غيبو يسبر فيها خطرا محققا في الإنسانية، ولاسيما في العالم الثالث، جراء تفاعل ثلاث ثورات جديدة خارقة في عبورها للزمان والمكان، وهي:

١. ثورة العولمة: وهي الثورة الاقتصادية التي بدأت منذ القرن التاسع عشر وانفجرت بعد انهيار الحرب الباردة، وهي التي استطاع فيها الاقتصاد العالمي الإفلات من السلطة السياسية والركون فقط إلى معايير السوق.

٢. الثورة المعلوماتية (الرقمية): وهي الثورة التي سيهاجر فيها العالم إلى الفضاء

وقومية ذات بعد إنساني ولكن تراكمي، وهذا يعني أن التغير الواقع هو تغير محدود، أي أن قيمته تتحدد إضافة إلى قيمة ما سبقه من تغيرات. ومع ذلك ظلت هذه الثورات متنافسة ومتخاصمة أو متجاوزة في أحسن الأحوال، ولم تمتزج في يوم من الأيام بالرغم مما قدمته من مكاسب ومنجزات إنسانية جذرية للمجتمعات المتقدمة، ومكاسب نسبية للمجتمعات المتخلفة.

وفي إطار ثورة العلوم الرقمية أو ما يسمى بالفضاء السيبري "Cyber Space" فنحسب أن هذا المفهوم تغير تماما وإلى غير رجعة. صحيح أن الثورات العلمية أشمل وأبعد تأثيرا من الثورات السياسية والاجتماعية، وبالتالي يصعب المقارنة بين العلمي والسياسي، ولكن ما نحن بصدد الشهادة عليه في المستقبل القريب، أننا نعيش ثورة هي الأشمل إنسانيا والأشد وقعا على الحضارة من أية ثورة سابقة سواء أكانت علمية أم سياسية أم من النوعين معا، حتى لو كانت الثورات الراهنة تشي باستحضار بعض ملامح القرون الماضية، أو حتى تطويرها لميراث بغيض.

فأثار الثورة الرقمية في طريقها إلى القضاء تماما على المفاهيم التقليدية ومن بينها مفهوم الثورة ذاته؛ لأن منجزاتها لم تعد تقاس لا بالحقوق ولا بالمكتسبات ولا بحجم مساهمة هذه الثورة أو تلك في تيسير الحياة الإنسانية وتحقيق سعادة الإنسان، بل بتغير حضاري جذري على مستوى الإنسانية برمتها لا على جزء منها، وكأننا على أبواب خلق جديد؛ إما أن ننجح في معاشته، وإما أن نسلم للأجيال الجديدة هذا الخلق الجديد.

إن هذه الثورة الرابعة ستكون صادمة أكثر من الثلاث الأولى (غيبو- ب، ٢٠٠٣).

وفي نقده لهذه الثورات، خاصة الثلاثة الأولى منها، يلحظ غيبو أن مشكلتها تكمن في كونها جميعا في حالة تفاعل وليست مستقلة، كما أنها محكومة بقوانين السوق المدمرة التي تجعل من المادة بديلا عن أية قوانين أخلاقية، فهي غارقة بالمال، وللمال ومن أجل المال. وفي تمثيله لبعض صور التفاعل هذه يتحدث عن ظهور ملمح يعيد الإنسانية إلى بعض ظواهر القرن التاسع عشر، ويؤشر على تراجع تاريخي في مسيرة البشرية، يتمثل بإعادة إنتاج أنماط السيطرة التقليدية، وأن يبرر التخلي عن الديمقراطية، ويؤسس لنزعات مضادة للإنسانية، كعودة الاستعمار والعنصرية. وفي السياق نفسه يطرح الباحث عدة تساؤلات تهم العالم الثالث على وجه الخصوص من نوع:

- أ. ألا تشجع التقنيات الإحيائية حاليا الفتح الاستعماري المتجدد؟
- ب. ألا تنتج الهندسة الوراثية مع معدلات نموها وتقدمها النموذج "السوي" المفترض عنصرية من النوع الثالث؟ من خلال التدخل في الجينوم وإجراء التعديلات المرغوبة؟
- ج. ألا يمكن أن تعيد فرضية الاستنساخ البشري اختراع مقولات فكرية للعبودية؟
- د. ألا تهدد هذه الوضعية بالقضاء، ليس فقط على الديمقراطية، بل على إنسانية الإنسان؟ خاصة بعد تحويله إلى مجرد

الافتراضي أو الحيز الذي ولدته العلوم الرقمية مولدا قارة سادسة تنضاف إلى القارات الخمس.

٣. الثورة الجينية، أو الهندسة الوراثية (غيبو- أ، ٢٠٠٠) وهي التي تولدت في أعقاب الإعلان العالمي عن اكتشاف خريطة الحياة (DNA) أو أسرار الجينوم. ولنتبين أهمية هذه الثورة لنقرأ الفقرة الآتية في مقدمة مؤلف "العصر الجينومي":

"في الخامس عشر من فبراير ٢٠٠١ أنجزت البشرية أهم وأدق مشروع في تاريخها الطويل، هذا الإنجاز الذي يتعلق بسر الحياة، ويصف الحروف التي كتبت بها قصة حياة كل فرد من أفراد المجتمع الإنساني، ويكون الإنسان ولأول مرة في تاريخ وجوده قد ألفت إلى نفسه للتعرف عليها والغوص في أعماقها". ومن طرائف هذه الثورة ما ورد في الفصل الرابع حيث نقرأ:

"من مشروع الجينوم البشري يبدو واضحا أن البشر يتطابقون وراثيا فيما يعادل ٩٩,٩% ونقاط الاختلاف هي ٠,١% فقط وهذا يعني أن هذه النسبة البسيطة في الاختلاف بالأحرف التي تشكل مادة الـ (د. ن. أ) هي التي تؤمن وتسبب التنوع الكبير في جماعات وأفراد الجنس البشري" (الخلف، ٢٠٠٣).

٤. وهناك ثورة رابعة لم يسمع عنها أحد، حسب ما يشير غيبو، وسيباشر العمل فيها بعد خمس عشرة سنة، وهي ثورة "النانو تكنولوجيا". هذه التكنولوجيا سوف تمنحنا قدرة التأثير على المادة ذاتها، أي اللعب بجزيئاتها وإعادة صوغها وابتكارها ...

مادة يجري التلاعب بها بمقتضى قوانين السوق؟

وبعد أن يفصل القول في بعض هذه التساؤلات يجيب غيبو بلا تردد: "العالم الثالث مهدد بميراثه الجيني المادي" (غيبو - أ، ٢٠٠٠). ويلاحظ غيبو أيضا أن البشرية كانت تحتاج إلى قرنين أو ثلاثة قرون للتغير الجذري، ولكننا اليوم لا نحتاج لأكثر من عقدين، وهو ما يؤشر على حالة الرعب والصدمة التي تصيب الناس من السرعة التي يجري بها التغير (غيبو - ب، ٢٠٠٣).

وفي واقع الأمر فما يبدو عصيا على الفهم والتصور، ومثيرا للدهشة والصدمة، ليس التحول بحد ذاته، وهو ما اعتادت عليه البشرية بقليل أو كثير من الألم، ولا بسرعة التحول فحسب، بل بمحتواه الذي يحتاج "إلى جيلين من الزمن كي نستوعبه" (غيبو - ب، ٢٠٠٣).

وهذا التوصيف يقدّم لنا في الوقت الذي يتحفنا أحد رواد العلوم الرقمية بالقول: "إننا ما زلنا منها في مرحلة نزع القشرة؟" (أبو لبدة، ٢٠٠٤). فما الذي نستطيع تصوره عندما نلج لبّ هذه العلوم؟ فحسب دراسة أعدتها جامعة بيركلي، فإن ما ينتجه العالم سنوياً من أفلام ومطبوعات ومواد بصرية والإلكترونية، يبلغ ما يعادل ٥,١ بليون جيجابايت، أي ما يعادل ٢٥٠ ميغابايت لكل شخص. ويساوي ذلك كومة ارتفاعها عشرة أمتار من الكتب لكل رجل وامرأة وطفل على سطح هذا الكوكب (مغربي، ٢٠٠٣). المشكلة أن ما نحن في انتظاره أعظم من قدرتنا على

التخيل، إذ يشير تقرير علمي سرّي قدم إلى الحكومة الفرنسية، إلى أن طاقة الكمبيوتر ستتضاعف في السنوات القادمة إلى مليون أو مائة مليون مرة (غيبو - ب، ٢٠٠٣). فأني محتوى كامن لهذه الثورة التي نعيش بواكيرها؟

الرقمية والإنسان الافتراضي

لعل مقارنة إجرائية قد تتيح لنا فهم مضمون الرقمية على نحو ما. ففي إطار مفهوم المادية التاريخية الذي صكه كارل ماركس لفهم حركية التاريخ والمجتمع، افترض وجود بنيتين؛ إحداها تحتية تشمل قوى الإنتاج، والأخرى فوقية تمثل كل ما تفرزه البنية التحتية من علاقات إنتاج؛ تتمظهر في الأفراد والجماعات والمؤسسات والأفكار والمعارف والفلسفات... إلخ، بمعنى أن الحراك الاجتماعي يقع حصراً بين تفاعل هاتين البنيتين.

وما لدينا عن الرقمية يكاد يطابق ما فكر به كارل ماركس منذ زمن، بيد أن الاختلاف يكمن في اللغة المستخدمة، ففي حين تتواصل الإنسانية وتبني حضارتها بمنطق لغة الحروف والأصوات وما تخلفه من دلالات ومعاني ورموز وتصورات وتأويلات وتفسيرات وتنوع في المعنى، فإن أجهزة الحاسوب على تنوعها واختلافاتها وتطوراتها إنما تشغل بمنطق لغة الأرقام المجردة. فלغات الحاسوب في حالة الاتصال هي "أوامر يستقبلها ثم يحولها إلى أرقام بدءاً من مرحلة ٠ - ١ وصولاً إلى نظام الـ Byte / Mbyte وفي حالة الإرجاع هي

كل الموجودات والتصورات والأخلاق والقوانين والعلاقات والتركيبات الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية والفن والجمال والطبيعة والمدينة والحي والدولة والمجتمع والأفراد والجماعات والسلوكيات والمواقف والآراء والمعتقدات وأنماط التفكير والعلم والمعرفة.

وبتعبير عالم الاجتماع الألماني جورج زيمل (G. Simmel)، فإن كل الأشكال الاجتماعية وما يمكن اعتباره منذ اللحظة تقليدياً، ستتغير أو تتكيف مع المنهجية الرقمية للحياة في كل انسيابيتها، بل أن ما يسميه ماكس فيبر (Max Weber) بالفعل الاجتماعي، سيتحول، من منظور العلوم الرقمية، إلى فعل رقمي إن عاجلاً أم آجلاً. وبتعبيرات الوضعية بدءاً من أوجست كونت ومروراً بـ إميل دوركايم وانتهاء بـ، مارسيل موس (M. Moss)، فالكلية الاجتماعية ستضطر في أغلب مكوناتها إلى التعبير عن ذاتها بمنهجية رقمية.

وفي مثل هذه الوضعية حيث تهيمن علوم الرياضيات على كافة مناحي الحياة، وتثبت المرة تلو المرة أنها أم العلوم قاطبة؛ ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، ستغدو الرقمية منهجاً لقراءة مختلف الأفعال والسلوكيات والمنجزات والأفكار، وكل الظواهر الاجتماعية والإنسانية، سواء أكانت فردية أم جماعية. فالتخلف بمختلف مظاهره، وعملاً بدقة الأرقام وحياديتها الصارمة، سيقع في خانة الصفر (off) بينما يوضع التقدم في خانة الواحد (on)، وكذا الأمر لو عاينا مقولات من نوع اجتماعي أو سياسي أو فكري أو حضاري؛

استقبال المعلومات في هيئة لغة يتعامل بها ويفهمها البشر" (ابن يونس - أ، ٢٠٠٤) الذين يبدو أنهم يفضلون استخدام الحروف؛ لكونها أبسط كثيراً في التعامل مع الذاكرة الإنسانية، في حين تفضل الحواسيب التعامل مع الأرقام أو أنها هي اللغة التي تفهمها بدقة متناهية" (ابن يونس أ، ٢٠٠٤).

بمعنى أن الأوامر التي تعطى للحاسوب بوساطة الحروف، يترجمها هذا الأخير إلى أرقام تمثل نظائر للحروف، وليست الحروف نفسها (جريس وآخرون، ٢٠٠٤). فالرقمية هي إذن اشتغال بموجب نظام صارم ١-٠... ليس فيه للوسطية أو المرحلية أو التدرجية أي معنى أو حضور، وليس فيه تأويلات ولا تفسيرات مرنة، فكل عمليات الحراك الاجتماعي والعلمي والمعلوماتي والأخلاقي والإنساني، من غير المسموح لها أن تتحرك ولا حتى في نطاق الصفر - واحد، بل إن كل النشاطات الثقافية والاقتصادية والسياسية والمعرفية تنتج حالياً على قاعدة الصفر - واحد، لتكون مخرجات هذا النظام الشاهد على البواكير الأولى لحضارة إنسانية غير معهودة.

ولو أسقطنا هذا النظام الرقمي على الحيوية الاجتماعية أو على مكونات "الحقل الاجتماعي" بتعبير بيير بورديو، لتبين لنا أن ما هو متاح لنا غير قابل للتعديل أو التبديل أو التحريف أو العبث الأيديولوجي، فالحيز متاح ليس غامضاً ولا عاطفياً ولا يقبل المساومة ولا التدخل في طريقة الاشتغال، فهو إما أن يشغل دون عوائق تذكر (on)، وإما أن يتوقف كذلك (off). هذا هو الاختيار الموضوع بين أيدينا وأمام ناظرينا للتفاعل مع

كالأسياد والعبيد، والفكر الميتافيزيقي والعقلاني، أو الثورة والاستعمار، أو الضعف والقوة. وفي هذا السياق من العقلية الرقمية، ستغدو مقولات شهيرة مثل مقولة شكسبير (نكون أو لا نكون)، وديكارت (أنا أفكر إذن أنا موجود)، وتصريح الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش بعد هجمات ١١ سبتمبر على نيويورك وواشنطن (إما معنا أو ضدنا) هي، بامتياز، مقولات ذات طابع رقمي.

يبدو الإنسان، بفعل سطوة العلم والتحول المستمرين، هو الوجه الآخر للمجتمع. وكلاهما مجرد ظاهرة نمطية قابلة للتشكل. ففي كل نمط اجتماعي اقتصادي في التاريخ الإنساني، كنا نلاحظ تلازما بين الفرد والمجتمع القائم، ففي المجتمع البدائي كان يقبع إنسان الصيد الخائف والمتوحش في نفس الوقت، ثم خُلف المجتمع الإقطاعي - الزراعي الإنسان العبد، أما في المجتمع الصناعي فكان الإنسان الميكانيكي الذي يهتم بالتراكم الرأسمالي والعلمي ويستعيز عن قوته الجسدية بقوة الآلة، أما في مجتمع الثورتين الصناعية والإدارية في خمسينات القرن العشرين فقد ظهر الإنسان المنظم، وما هي إلا بضع سنوات لا تكاد تصل إلى العقد حتى ظهر الإنسان الصناعي المبرمج، ثم تلاه الإنسان التكنولوجي وما بعد التكنولوجي، وها نحن في عصر الإنسان الرقمي ومجتمع المعلومات.

فهل يمكن القول إن "الإنسان الأخير" قضى على أطروحة المفكر الأمريكي فرانسيس فوكوياما (Francis Fukuyama) في كتابه الشهير "نهاية التاريخ والإنسان الأخير"؟ أم أنه هو ذاته الإنسان الافتراضي الذي روج له؟

لعله هو ذاته. وهو كالمجتمع أحد منتجات العولمة، وها هو فوكوياما يدلل على ذلك بمقالة حديثة له يقول فيها: "قبل ١٠ سنوات جادلت بأننا بلغنا "نهاية التاريخ" ولم أعن بذلك أن الأحداث التاريخية قد تتوقف لكن ما عنيته هو أن التاريخ الذي يفهم على أنه تطور المجتمعات الإنسانية من خلال أشكال مختلفة من الحكومات، قد بلغ ذروته في الديمقراطية الليبرالية المعاصرة ورأسمالية اقتصاد السوق" (فوكوياما، ٢٠٠١). ولكن موقع هذا الإنسان لا تعني ماهيته حصرا فمن يكون؟

الإنسان الافتراضي هو ذاك الفرد الذي يقبع خلف جهاز الحاسوب؛ في غرفة أو مكتب أو سيارة أو قطار أو طائرة أو مقهى انترنت، متصفحاً ومتجولاً في أنحاء العالم والمواقع، ومتواصلاً مع عالم من الأفراد والجماعات والمؤسسات، يفاوض ويحاور ويفتش عن المعلومات والمعرفة ويقضي احتياجاته دون أن يتحرك من مكانه. إنه بالحقيقة السيبرية:

"أشبه ما يكون بالبرنامج الإلكتروني، فهذا الإنسان سيأكل ويشرب ويحب ويضاجع بطريقة رقمية، وهو سيعيش في مجتمع رقمي بالكامل. وسيعيش في مدينة مفترضة هائلة الضخامة مدينة واحدة تشمل العالم كله، وهذه المدينة موجودة في الخيال فقط، وهذا الإنسان لن يضطر أن يذهب إلى مكاتب ليزاول عمله، ولن يضطر للذهاب لمحلات تجارية ليشتري منها، ولا إلى مطاعم ليأكل بها، ولا إلى سيارات ليتنقل بها، ولا إلى نواد اجتماعية ليقابل أصدقاءه بها... هذا الإنسان لن يضطر

للذهاب إلى أي مكان، وذلك لأنه ببساطة موجود في كل مكان...؛

وسيصبح الإنسان الواقعي موضع تنذر وسخرية عندما:

"سيجلس هذا الإنسان (الافتراضي) يوماً ليكتب، أو يرددش مع أصدقائه ليقول، تصوروا أن إنسان الزمن الماضي، كان يضطر للصحو في الساعة السابعة من صباح كل يوم ليذهب إلى عمله، وكان يضطر أن يذهب إلى ما كان يسميه بالسوق التجاري ليشتري ملابسه منها، ويضطر أن يذهب إلى ما كان يسمى بالمطعم ليأكل وفي المساء يذهب لمبنى يعرف بالنادي ليقابل أصدقاءه. تصوروا؟" (سناجلة، www.almashreq.org)^(١).

وفي واقع الأمر هذا هو الإنسان الواقعي ولكن ما يجعله الإنسان الافتراضي هو تفاعل الآخرين معه على الرغم من عدم معرفتهم به، فهو عبر تقنية الإنترنت شخص مفترض وجوده بالنسبة للآخرين. فهو إذن ذلك الإنسان الذي "يتم سحب البعد الواقعي عنه والذي يحصره في الزمان والمكان إلى بعد آخر هو البعد الافتراضي الذي يقيم فيه داخل الآلة وليس خارجها ... هو الإنسان الذي يتحول الجسد فيه إلى ما يشبه النص المتشعب من

خلال وجوده في الزمان والمكان" (اسليم - أ)^(٢).

تذكرنا حالة هذا الإنسان بوضعية عالم الجن، وتحديدًا عالم القصص القرآني خاصة قصة النبي سليمان والهدد وعرش ملكة سبأ، وقدرة عفريت الجن على تنفيذ مهمات وتقديم خدمات عبر حوار تنافسي أساسه العلم ومفاعيله عابرة للزمان والمكان: "قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشَهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ قَالَ عَفْرَيْتُ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (النمل: ٣٨-٤٠)".

ففي هذه الآيات الكريمة يبدو أن الزمان والمكان قد توحدًا تمامًا، وهذا ما تقر باحتمال وقوعه أحد قوانين النظرية النسبية وهي تتحدث عن السرعة المطلقة والسرعة النسبية. أما في عالمنا الذي نفترض أنه لما يزل واقعياً بعد، وفي مقاربة من نوع مختلف، فالإنسان الافتراضي يتنقل عبر أرجاء الكرة الأرضية بسرعة الضوء بحثاً عن المعلومات

٢. وفي مقالة أخرى له على موقعه بعنوان: "المشهد العربي في الانترنت" أرجع فيها مفهوم: "النص المتشعب التخيلي"، إلى جنس أدبي استحدثه مبدعون روائيون في الولايات المتحدة الأمريكية مباشرة بعد صياغة تدنسون لمفهوم "النص المتشعب"، أولهم ميكائيل جويس بروايته **Afternoon** التي صارت الآن من كلاسيكيات هذا الجنس الروائي.

١. مع الإشارة إلى أن للكاتب مؤلفاً بعنوان "رواية الواقعية الرقمية/ الرواية في العصر الرقمي" ويتحدث فصلها الثاني عن "الإنسان الافتراضي"، وقد نشرت صحيفة الرأي الأردنية الرواية أو أجزاء منها فيما ينشرها بالاتفاق مع المؤلف موقع: <http://www.middle-east-online.com>.

مناحيها، فربما يتحول الإنسان إلى كائن مُبرمج صاغر تقوده الرقمية إلى حيث تشاء تشكيله، وهو بهذا المعنى جاهل بل غارق في الجهل مسيطر عليه، وهو ما كان قد حذر منه عالم الاجتماع الألماني هيربرت ماركوز (Herbert Marcuse) في النصف الأول من القرن العشرين من خلال كتابه "الإنسان ذو البعد الواحد" حينما رأى في الإنسان القابع ساعات طوال خلف الآلة مجرد عبد لها أبعد ما يكون عن العلم بأسرار الجسد، أي الحياة ومضامينها.

المجتمع المعلوماتي والمجتمع الافتراضي

في أواخر السبعينات من القرن العشرين كان العالم الثالث بقيادة حركة عدم الانحياز، يجهد للمطالبة بديمقراطية إعلامية من خلال الاتفاق على نظام اتصال وإعلام جديد وفضاء عادل للبث، على اعتبار أن العالم بفعل تطور وسائل الإعلام أصبح قرية صغيرة، ولما تزل القوى الكبرى في العالم تحتكر المعلومات (المصمودي، ١٩٨٥)، ولم يجد المهتمون بالبحث لدينا، ونحن على أبواب العصر الرقمي، إلا اجترار العبارة إياها لتوصيف عالم اليوم وهو يصير "قرية صغيرة"! وكأن شيئاً لم يتغير. بينما يصف لنا إدوارد لوتاك أحد الاستراتيجيين الأميركيين التحولات الجارية بالقول: "إن السرعة المروعة التي تجري بها التحولات قد غدت صدمة لخطر عظيم من السكان" (مارتين وشومان، ٢٠٠٣). بداية ينبغي ملاحظة أن مجتمع المعلومات هو بنية تحتية شاملة بالدرجة الأساس، وهو تعبير مرادف إلى حد بعيد لمجتمع المعرفة،

تماماً كما هو حال الجان، وهو حال يدعو للفرع مما يسميه البعض بعنف المعلومات وإرهابها (علي وآخرون، ٢٠٠٤)، وهي وضعية تدفع الإنسان الواقعي إلى الإمعان في التخوف من سحب كلي للواقع، والتساؤل عما إذا كنا تحت تهديد تلاش تام للثقافة وحتى للهوية القومية؟ أو أننا أمام نوع من التلاشي الكوني كما يوحي به جان بودريارد (Jean Baudrillard)؟ أو ابتلاع رهيب للزمان كما أعلن عن ذلك بول فيريللو (P. Ferello) منذ سنوات عديدة؟ (اسليم).

لعل التساؤلات المشحونة بعاطفة الخوف الشديد باتت مشروعة؛ لأنها لا تغفل في سياق آخر التساؤل عن مصير الموجودات البشرية الحضارية، التي استوجب الوصول إليها آلاف السنين فما هو مصيرها؟ هل هي المتاحف الجديدة للحضارة الإنسانية؟

إن مشكلة الإنسان الأخير تكمن في إرهابات حضارة جديدة، لعله لم يع بعد دوره وماهيته فيها ولا غايته، وهو على العكس من نهايته يبدو في معطيات الزمن القادم مجرد إنسان بدائي، ويظهر متماهياً إلى حد كبير مع نظيره التقليدي. فالإنسان الواقعي وهو في حالة الدفاع عن الذات غدا في موضع تساؤل عما إذا كان يسير على طريق الزوال ومن ورائه الإنسانية برمتها والتي بات البعض يبحث في مصيرها وماهيته الجديدة في ضوء التقنية وتقدم العلوم الطبية، فهو في كل الاعتبار والتصورات إنسان خاضع للآلة وللعمل الرقمي الذي يتيح له كل شيء، وبما أن الرقمية هي لغة برمجة في واحد من

أي المجتمع الذي تتحدد اختياراته، حسب ألن تورين، بموجب منظومة عمل تاريخية ولكنها، في عصرنا السيبري، ذات محتوى رقمي، حيث يمكن الوصول إلى المعلومات وإنتاجها عبر التكنولوجيا الرقمية. أما المجتمع الافتراضي فهو بنية تفاعلية قوامها الكلية الاجتماعية (أفراد، جماعات، مؤسسات...) التي تتفاعل مع مجتمع المعلومات في الإطار السيبري متجاوزة المكان والزمان.

هذه الملاحظة من الأهمية بمكان؛ لأنها تعكس لنا حجم التخطي حتى على صعيد البحث العلمي.

وقد بدا هذا الأمر جليا لدى أحد الباحثين حين تعرضه لنشأة مجتمع معلومات، محدثا بعض اللبس والتوتر في الفهم من حيث القول بـ "النشأة غير الطبيعية" لهذا المجتمع "المفاجأة" وتبرير وجوده تارة بـ "ردة فعل أمريكية ذات طابع عسكري على قيام الاتحاد السوفياتي/ سابقا في عام ١٩٥٧ بإرسال القمر الصناعي العسكري "Sputnik Space!!" (ابن يونس - أ، ٢٠٠٤) مما أربك الولايات المتحدة ودفعها إلى إعادة النظر في مناهجها التربوية والعلمية والتفكير ببناء قاعدة معلومات جديدة فكانت شبكة الانترنت العسكرية أولى بواكير المجتمع المعلوماتي، أو برده تارة أخرى إلى تطور علمي هو بالضرورة طبيعي حين "أطلق العلماء فكرة وجوده مع ظهور الحوسبة!" (ابن يونس - أ، ٢٠٠٤).

كما إن مثل هذه الأطروحات، وهي تماثل أيضا ما بين المجتمع الافتراضي ومجتمع المعلومات، متصورة إياه مجرد تقنية يصعب

ملاحقتها وبالتالي يصعب تعريفه باعتباره مجتمعا يتشكل بصورة لا نهائية، إنما تقع في فخ الحيرة والإرباك اللذين تخلفهما التقنية الرقمية ذاتها على الدوام، ويحضرنا في هذا السياق تعليق الدكتور بطرس غالي الأمين العام السابق للأمم المتحدة حين يقول: "إن التاريخ يشهد على أن أولئك الذين يعيشون في غمرة التحولات الثورية، نادرا ما يفهمون المغزى النهائي لهذه التحولات" (مارتين وشومان، ٢٠٠٣).

إن الشعور بالحاجة إلى التأصيل النظري لمجتمع المعلومات، بوصفه مفهوماً عصرياً هو أمر مرغوب لو أمكن ذلك، ولكن ينبغي الإقرار بأن المسألة تتعلق حتى الآن، وفي المدى المنظور، بالبناء وليس بالتعريف، وحتى البناء، بالنسبة لأحد الخبراء العرب، "لا يعني فقط إيجاد بنية تكنولوجية وتوفير حواسيب وغيرها من الأجهزة الحديثة والمتطورة، وإنما يعني أيضا صياغة رؤى واستراتيجيات وقيم ومعايير تهم مختلف مجالات الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية والتربوية، ... لتحقيق التنمية المتوازنة، العادلة والشاملة، ... من خلال توظيف ثمرات الثورة الاتصالية، التي تعمل على تسريع نسق التنمية وتعميمه وتطويره، وتشكيل المجتمع بصورة جديدة" (قلوز، www.afkaronline.org)، وليس هذا فحسب، ولكننا نجد أن المحتوى السوسيولوجي لهذا المجتمع، إنما يتعلق بمدى قدرة المجتمع الواقعي في بلد ما على بنائه، ليستجيب من جهة للتشكيلات الاجتماعية الكائنة ويكون لكل فرد وفئة، غنيا أو فقيرا، ولمختلف فئات

منتجات العلوم الرقمية، والركون إلى التحديث المستمر للتكنولوجيا وأدوات العمل.

وأما أن تكون معايينة حدود الجهد الرقمي في الوقت الراهن غير يسيرة بما يكفي؛ فلأن الإشكالية تتصل أصلاً بما بات يعرف بالبنى التحتية له اجتماعياً وتقنياً، وهذه مسألة تحتاج إلى التآني والصبر إذا لاحظنا، على الأقل، أن ثورة العلوم الرقمية ومنتجاتها التكنولوجية ما زالت في بداياتها، وأن الجهد الدولي المعلن بقيادة الاتحاد الدولي للاتصالات ينصب الآن على مبادرة "توصيل العالم" بصفتها أولوية، وهي عملية تحتاج إلى الاستمرارية إذا علمنا أن ٨٠٠ ألف قرية في العالم تقع خارج نطاق الاتصال محلياً وعالمياً ناهيك، عن التواصل (توصيل العالم: الاتحاد الدولي للاتصالات).

لذا لم يكن مستغرباً أن تختزل القمة العالمية طموحاتها من "إدارة مشتركة للشبكة" وبناء مجتمع المعلومات إلى مجرد الإقرار بوجود ما يسمى بـ "الفجوة الرقمية - digital divide* التي تحول دون القدرة على بناء

الأعمار، حق الانتفاع به والتفاعل معه، ومن جهة أخرى يستجيب للوحدة الترابية للمجتمع، فتتساوى فرص النفاذ إليه ما بين التجمعات الحضرية والريفية على السواء (الباجي، ٢٠٠٥).

هكذا سنجد أنفسنا إزاء مجتمع معلومات غير محدد المعالم بعد، وإن كنا لا نستبعد في ذات الوقت فرضية التضليل والخداع وربما الجهل فيه. فتارة يجري البحث عن مقاييس أو معايير عالمية موحدة تسمح بالقول بوجود كينونة حقيقية له إذا توافرت شروط معينة، وتارة أخرى تتغير المقاييس لتغدو مجرد مؤشرات تسمح بقياس ما يُعتقد أنه كائن، بالرغم من أنه لم يتجاوز بعد مرحلة نزع القشرة، فهو يكاد يبدو في بواكيره الأولى باعتباره صيرورة شاملة بامتياز لا تتفك عن التطور، زد على ذلك أن الدعوة إلى توحيد المعايير العالمية لمجتمع المعلومات، مسألة تواجه بتعقيدات شتى لا سبيل إلى حصرها، وإن كان أقلها الهوية الاقتصادية الهائلة بين الأغنياء والفقراء، والتوزيع المجحف للثروة عالمياً، فضلاً عن التنوع اللغوي والثقافي الكبير بين المجتمعات الإنسانية.

ولو أمعنا النظر قليلاً لتبين لنا أن الدول المتقدمة ذاتها، ضمن مسار التطور التقني المطرد، تعاني من تفاوت في البناء محلياً وبالمقارنة فيما بينها (دلماس، ٢٠٠٥)، ولعلها لم (ولن) تستكمل، بعد، بناء هذا المجتمع، وليس باستطاعتها الجزم بأنها في الطريق إلى ذلك لاستحالة التنبؤ بمنتهاه، وهذا يعني، في أحسن الأحوال، البناء بما هو كائن من

* ظهرت الإشارة إلى المصطلح سنة 1998 في تقرير صدر عن الإدارة الوطنية الأمريكية للاتصالات والمعلومات بعنوان: *المسقوط في الشبكة II: معطيات جديدة عن الفجوة الرقمية*. وبدا من التقرير أن المصطلح متشعب المحتوى وذو محتوى سوسيو - اقتصادي فضلاً عن محتواه التقني، حيث يتحدث عن التوزيع غير المتكافئ لتكنولوجيا المعلومات والاتصالات بين الفئات الاجتماعية الاقتصادية المختلفة داخل الولايات المتحدة، وعن اختلافات كثيرة فيما يتعلق بتوافر الهاتف المنزلي والحاسوب والإنترنت من حيث الدخل والسن والموقع والمستوى التعليمي.

مجتمع معلومات مبدئي يمثل غاية تنموية واقتصادية. ومع ذلك فقد بات بناؤه هدفا معلنا لأغلب الحكومات العربية وغير العربية، ولا أدل على ذلك من شيوع المصطلح عالميا، حيث احتضنته الغالبية الساحقة من الأوراق والتقارير والمشاريع، التي تقدمت بها الدول والمنظمات الحكومية وغير الحكومية إلى المرحلة الثانية من القمة العالمية لمجتمع المعلومات التي انعقدت في تونس خلال الفترة ١٦-١٨ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٥.

أما على صعيد المجتمع الافتراضي بصفته بنية تفاعلية، فنحسب أنه نتاج لعمليات التبدل والتحول المنبئة عن كل ماض، مع أنها تواترت عبر الزمان والمكان وقلبت حياة الأفراد والمجتمعات رأسا على عقب. ولما كان البعض محقا في توصيف العصر الذي نعيش، فإن العلامة العربي ابن خلدون هو أجدر من يوصف عصرنا حين يقول: "إذا تبدلت الأحوال جملة فكأنما تبدل الخلق من أصله، وتحول العالم بأسره وكأنه خلق جديد ونشأة مستأنفة، وعالم محدث" (ابن خلدون، عبد الرحمن، بلا. ت).

وإذا استعرنا لغة أوجست كونت عن الكلية الاجتماعية، فالمجتمع بالمحصلة هو كل الأفراد الأحياء منهم والأموات، وكل إجمالي الذاكرة الاجتماعية. والكل بحسب هذا المعنى سيحشر في مبدأ الصفر- واحد، وسيصير افتراضيا لا محالة. وبالتالي فهو، إلى حد كبير، معرض للتلاشي الكوني. فالمجتمع السيبييري ليس مجتمعا محليا تقليديا تحده اللغة أو الثقافة أو الأصول الإثنية أو التضاريس الجغرافية، إنه أوسع بكثير مما

يُظن، ويبدو أنه حتى اللحظة مجتمع هلامي مبعثر في شتى أنحاء الأرض والفضاء السيبييري، ولكنه في طريقه إلى التشكل والتقارب على نحو يجعل منه قارة سادسة، مضمونها المال والتجارة والتقانة والاتصالات والاقتصاد... إلخ. هذه القارة هي الحيز الافتراضي الذي ولدته الرقمية (غيبو أ، ٢٠٠٠). ولأن خمس سكان الكرة الأرضية هم المعنيون فقط في المعيش الذي تفرزه سياسات العولمة (مارتين وشومان، ٢٠٠٣)، فالمجتمع/ القارة الذي يجري الحديث عنه إذن هو مجتمع الخمس هذا.

وإذا أردنا تكثيف عمليات التغير المنتظرة فلن يكون بوسعنا الحديث، في إطار الخمس، إلا عن مجتمع متخيل يسير كالإنسان بسرعة الضوء. فإذا كان الإنسان الواقعي نفسه مهددا بنوع من التلاشي، فلماذا لا يكون المجتمع كذلك؟ ربما علينا التساؤل أيضا عن حاجة الإنسان الافتراضي إلى مجتمع ذي طبيعة تقليدية، مكون من تشكيلات اجتماعية وثقافية وجغرافية وإنسانية؟ بل ربما علينا التساؤل عن طبيعة العلاقات الاجتماعية والأسرية، المنتظر صياغتها أو ولادتها في ظل إنسان حاضر في كل زمان ومكان، بل إنه موجود في أكثر من مكان في نفس الوقت. وكذا التساؤل عما إذا كان للموجودات الاجتماعية والثقافية والمحيط الاجتماعي عنده قيمة تذكر؟

فالحواسيب والبرمجة وتقنيات الخزن والإرجاع والبحث ستوفر إمكانية نقل مختلف المنجزات الحضارية على أقراص أو توفيرها على المواقع، وحتى الطبيعة بتتويعاتها

وتضاريسها وظواهرها يمكن حشوها في أدمغة الحواسيب ومشتقاتها.

وإذا كان من الصعب تصور ما تخفيه القشرة الرقمية، فمن المدهش انتظار ما ستكون عليه الأمور بعد بضع سنوات أو عقدين على الأكثر إذا علمنا مثلاً أن أنظمة البث التفاعلي باتت تطرق الأبواب ولوحات الاستقبال والإرسال، وأنها ستعلق على الجدران وفي الساحات العامة، والبنى التحتية يجري تحويلها في الكثير من مدن العالم إلى بنى رقمية، لتكتسح البيوت الرقمية المجتمع الواقعي، ولتغزو أنظمة الاتصالات الراهنة عما قريب في ذمة التاريخ.

وفي واقع الأمر فنحن لا نتحدث عن تلاشي الإنسان الواقعي أو المجتمع الواقعي ليحل محلها الافتراضي، بل نتحدث عن أنماط اجتماعية واقتصادية واستهلاكية جديدة، بنفس القدر الذي نتحدث فيه عن أنماط السلوك والقيم والعادات والرموز والثقافة التي سيتمتع بها الإنسان الجديد. ونتساءل عن المحتوى الحضاري والإنساني الذي سيميز شخصية الإنسان والمجتمع الافتراضيين؟ كما نتساءل عن الوسط الاجتماعي الذي سيعيش به الفرد ونمط العلاقات التي سينسجها؟ بل إننا نتساءل عن المفاهيم الجديدة التي سيتخذها للتعبير عن كينونته في إطار الفضاء الافتراضي بصفته مفهوماً للوجود والحياة والحضارة والدين والثقافة والعلم والمعرفة والإنسان والجماعة والأسرة والمؤسسة والبنية والآخر والعدو والصديق والمكان والزمان والعمل والبطالة... إلخ؟ ترى، ألسنا بصدد اشتقاقات جديدة للغة؟ لا ريب البتة أن التساؤلات أكثر

من أن تحصى، فنحن نعيش لحظة انفجار كوني جديد (New Bingbang) من المستحيل أن نقدر على استشراف آثارها. لو عاينا قليلاً ثنائية الدولة والمجتمع، والآثار المترتبة على الثورة المعلوماتية، فس نجد التوجهات العالمية السائدة اليوم تقوم على مبدأ السوق المعولمة، وتتجه في الوقت نفسه نحو إنشاء الحكومة الإلكترونية، وهما متغيران بنيويان سيؤديان، إذا ما استمر العمل بهما على نفس الوتيرة من السرعة، إلى غياب الدولة وعجز المجتمع عن التدخل والتأثير في سلطة السوق.

ولا شك أن مثل هذه الأحداث ستكون كافية لاستحضار النبوءات الماركسية التي ترى أن الحاجة إلى الدولة ستختفي كلما اقتربت المجتمعات الاشتراكية من آخر مراحل تطورها، أما ليبراليا فيجري الحديث الآن عن عالم فوضوي يحكمه السوق، ويقوده أصحاب المال والثروة من شتى المنابت والأصول، وهم الذين يتلاعبون بالدول والمجتمعات على حد سواء ويفرضون السياسات التي تلائم مصالحهم دون أي وازع إلا من السوق. وهو الأمر الذي أفرز ما يعرف اليوم بالعولمة. وتأسيساً على ذلك يتخوف البعض من فقدان الدول المتقدمة لرأسمالها الاجتماعي، المتمثل بالرأفاهية وتعدد الطبقات وأنظمة التأمينات والنقابات وسطوة المجتمع المدني، بل وتعرضها إلى العنف وخطر التفكك بما في ذلك الولايات المتحدة الأمريكية (مارتين، وشومان، ٢٠٠٣).

بعض الملاحظات الختامية

لقد أنجبت التغيرات الحضارية الإنسانية الكبرى أدوات وتقنيات جديدة للتفكير تواكب كل عصر، وفي أعقاب الثورة الفرنسية ١٧٨٩م وشيوع مناخ الحريات العامة حاول أوجست كونت بناء شجرة العلوم، بغية حصر ما هو كائن منها في ذلك الزمن ومعرفة ما ينقصها، فوجد خمسة علوم رتبها تصاعديا وهي: الرياضيات - الفلك - الفيزياء - الكيمياء - الأحياء، ولكنه لم يجد علما يعالج الظواهر الإنسانية والاجتماعية، لاسيما وأن ابن خلدون لم يكن معروفا آنذاك في أوروبا، فاستعار عبارة "الفيزياء الاجتماعية" *physique social* لأستاذه سان سيمون، وأعطاه اسمًا جديدًا هو "السوسيولوجيا" *sociology* وجعلها تتربع على قمة الشجرة. ومنذ تلك الولادة العسيرة، التي رعاها وحافظ عليها إميل دوركايم من هجمات المدرسة النفسية التي قادها جابرييل تارد (G.Tard)، قدمت السوسيولوجيا عروضًا نظرية بالغة الدقة والمتعة في مواكبتها لفكرة التقدم وما تمحض عنها من ظواهر مستجدة، نقلت البشرية من حالة إلى حالة مغايرة تمامًا. ولكنها تحتاج الآن إلى أدوات وتقنيات وأنظمة مفاهيمية فريدة، تلائم عصر المعلومات الذي يحظى بفرادة لا تقل عما حظي به العصر الصناعي في يوم ما. والأهم من هذا وذاك أن الحرب النفسية والمادية الشرسة والإرهابية التي تشن على شعوب العالم الثالث وحتى على الطبقات الوسطى والفقيرة في العوالم المتقدمة بالتوازي مع الانفجارات العلمية الكبرى، ينبغي أن تشكل حوافز للعلوم الإنسانية كي تتأني في

رصد مثل هذه الظواهر وطمأنة المجتمعات، فمهما تكن تطورات التقنية والثورات العلمية، فإن موضوع علم الاجتماع في الكثير من نظرياته هو حكم العلاقات الاجتماعية ولا شيء غيرها.

وهذا يعني أن التفكير في بناء المجتمع المعلوماتي ينبغي ألا ينصب على المكونات والخصائص التقنية فحسب، بل وعلى قدرات المجتمع الواقعي، وعلى التفاعل الاجتماعي معه وعلى السلوكيات والمواقف والآراء والقيم والأخلاق، التي تصاحب هذا التفاعل أو تنبثق عنه. إذ إن من البديهيات البسيطة أن المجتمع المعلوماتي لا يمكن له أن يوجد في أية كينونة، وينشط من دون تفاعل الأفراد والجماعات والمؤسسات مع مناهجه ومنتجاته والاستفادة منها إلى أقصى الحدود. وعليه فإن تطوره مرهون بمدى تفاعل المجتمع الواقعي معه وتقبله له.

وإذا كان المجتمع المعلوماتي يمثل حاضنة للمجتمع الافتراضي، فلا شك أن كلا المجتمعين بالنهاية ليسا منبثقين عن المجتمع الواقعي، الذي يمثل حاضنة لهما، فضلا عن أنهما يشكلان بعض ظواهره التي لم تكتمل، وبالتالي فهمما اتسع الفضاء الافتراضي ومهما كانت قوته وقدرته على اختزال المجتمع الواقعي، فسيظل أحد منتجاته ولن يقوى على إزالته.

ومن دون ذلك فإن أي خروج "غير طبيعي" عن الحاجات البشرية أو بلوغ لحالة العجز الإنساني عن مواكبة الانفجار العلمي، سيعني قطعًا تراجعًا ليس في التقنية ولا بالتقدم العلمي بل بالتفاعل معهما، وفي ذلك يستوي

- الفقير والغني فردا أو دولة أو مجتمعا، ولنستمع لما يقوله أومبيرتو أميللي المدير السابق لشركة فيات الإيطالية: فـ"حينما تبلغ التكاليف الاجتماعية للتكيف مع السوق العالمية حدا لا يطاق، فستزدهر عقلية الانكفاء على الذات في مختلف دول العالم" (مارتين وشومان، ٢٠٠٣). أما اللاهوتي الألماني الكبير كارل راهنر فيعلق على مفاعيل الرقمية وغزوات التكنولوجيا مبتعدا عنها وقانعا فيما لديه بعبارة طريفة: "نوافق أن نبقى" "أغبياء متبهيين" و"بلهاء حاملين البراءة" يشوبنا من دون أن ندري "جهل الفقهاء" (غيبو - أ، ٢٠٠٠).
- (٥) ابن يونس، عمر - ب، مشكلة قواعد البيانات، ط٢، دار الفكر الجامعي، الإسكندرية، ٢٠٠٤.
- (٦) بشير، عماد، مستقبل الثورة الرقمية... (الصحافة العربية اليومية في العصر الرقمي)، ٢٠٠٤.
- (٧) جريس، حنا، وآخرون، مستقبل الثورة الرقمية: العرب والتحدي القادم (الهيبر تكست: عصر الكلمة الإلكترونية)، كتاب العربي ٥٥، سلسلة فصلية تصدرها مجلة العربي الكويتية، الكويت: ١٥ كانون أول - يناير ٢٠٠٤.
- (٨) الخلف، موسى، العصر الجينومي، استراتيجيات المستقبل البشري، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، شهرية عالم المعرفة، الكويت، تموز ٢٠٠٣.
- (٩) علي، نبيل، مستقبل الثورة الرقمية... (عنف المعلومات... وإرهابها)، ٢٠٠٤.
- (١٠) الكيالي، عبد الوهاب، موسوعة السياسة (هجائية)، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٦.
- (١١) مارتين، هانس و شومان، هارالد، فخ العولمة، ط٢، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، شهرية عالم المعرفة، ٢٩٥، الكويت، آب ٢٠٠٣.
- (١٢) المصمودي، مصطفى، النظام الإعلامي الجديد، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، شهرية عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨٥.

المراجع

- القرآن الكريم: سورة النمل، الآيات: {٣٨}، {٣٩}، {٤٠}.

أولاً: الكتب

- (١) إبراهيم، سعد الدين وآخرون، ثورة يوليو وإعادة تفسير التاريخ: مصر والعروبة وثورة يوليو، ط١، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٢.
- (٢) أنصار، بيار، العلوم الاجتماعية المعاصرة، ترجمة نخلة فريفر، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٢.
- (٣) ابن خلدون، عبد الرحمن، مقدمة ابن خلدون، نسخة محققة، دار الشعب، القاهرة، (بلا، ت).
- (٤) ابن يونس، عمر - أ، المجتمع المعلوماتي والحكومة الإلكترونية: مقدمة إلى العالم الافتراضي، دار الفكر الجامعي، الإسكندرية، ٢٠٠٣.

ثانياً: الدوريات العلمية

- (١٣) دلماس، برونو- مقابلة أجراها د. غسان عمر، مجلة حوار العرب، العدد ١١، أكتوبر - تشرين أول ٢٠٠٥.

ثالثاً: تقارير وندوات

- (١٤) الباجي، فريال (ورقة)، ندوة دولية حول: "النساء في مجتمع المعلومات والمعرفة: المسار"، الاتحاد الوطني للمرأة التونسية، يومي ٩ و ١٠ أوت ٢٠٠٥.

- (١٥) برنامج الأمم المتحدة UNDP، ٢٠٠١، تقرير التنمية البشرية: "توظيف التقنية لخدمة التنمية البشرية". متوفر على موقع الجزيرة نت في الشبكة الدولية: www.aljazeera.net

رابعاً: صحف ومجلات

- (١٦) غيبو، جان Jean - Guillebaud - أ، هل الإنسان على طريق الزوال؟، النسخة العربية، صحيفة لوموند ديبلوماتيك، تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٠.
- (١٧) غيبو، جان Jean - Guillebaud - ب، مقابلة، أجرتها صباح زوين، صحيفة النهار البيروتية، ٢٢/١/٢٠٠٣.
- (١٨) فوكوياما، فرانسيس، "هدفهم العالم المعاصر"، مجلة نيوزويك، الطبعة العربية، عدد ٨١، ٢٥ ديسمبر ٢٠٠١.

خامساً: مواقع الإنترنت

- (١٩) أبو لبدة، مصطفى، بيل غيتس لديه «خطة طريق» التنمية، صحيفة الرأي الأردنية، ٨/٢/٢٠٠٤، متوفر على الشبكة الدولية-

إنترنت: _____

- (٢٠) اسليم، محمد- أ، المشهد العربي في الانترنت، متوفرة على موقع المؤلف في الشبكة الدولية- إنترنت: <http://www.alrai.batelco.jo>

<http://aslimnet.free.fr>

- (٢١) اسليم، محمد- ب، مقدمات العصر الرقمي، مقالة وعنوان لكتاب قيد الإنجاز متوفرة على موقع المؤلف في الشبكة الدولية- إنترنت: نفس الموقع أعلاه.

- (٢٢) توصيل العالم، الاتحاد الدولي للاتصالات- القمة العالمية الثانية للمعلومات، تونس، ١٦ يونيو ٢٠٠٥. <http://www.itu.int/wsis/tunis/newsroom/background/connect-the-world-ar.doc>

- (٢٣) سناجلة، محمد، من هو الإنسان الافتراضي؟، متوفرة على الشبكة الدولية- إنترنت: <http://www.al-mashreq.org>

- (٢٤) قلوز، رضا، النماذج الاتصالية تقوم على خيارات استراتيجية مُلزِمة لمستقبل الشعوب.

<http://www.afkaronline.org/arabic/articles/gallouz.html>

- (٢٥) مغربي، أحمد، التراكم المعلوماتي عالمياً...كم يساهم العرب فيه؟ نقلا عن غرافيك: "التراكم المعلوماتي على الصعيد العالمي" صحيفة الحياة، في ١٠/١١/٢٠٠٣، متوفرة على الشبكة الدولية-

إنترنت: _____

<http://www.daralhayat.com>

The Individual, Society and Revolution in the Information Age

Akram M. Hijazi

Abstract

This search is classified under what we can nearly call the digital social science. Because of the age we live in witnesses big explosions to several scientific insurrections in the history of humanity as informational, genetic and economic revolutions.

The search goes toward thinking of secretions of age through it's central subjects related to sociology, and that:

- The role of sociology in the information age and the ability of classical theories on it's competence and the opposition of phenomena that resulted from the digital age.
- The position of individual and society as two central concepts in the social science in light of the hypothetical appearance of the human being and society, and the light of fear from their disappearance in favor of the hypothetical space.
- Viewing conceptional specific problems which are related to "the society of the information", and if the issue is hung to the concept? or the construction? noticing the differences among the widespread terms as the hypothetical, actual or knowledgeable society.

At the end, the search presents final notices connected to (1) the subject of social science in the shadow of the digital science (2) the relationship between the actual society and the digital societies as a basis of it (3) the sociable interaction to limit the influence scope of the digital societies on the actual society.

